

لطائف المعارف

المجلس الثالث في ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

في الصحيحين [من حديث أبي سعيد الخدري هـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال : إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء و بين ما عنده فاختار ما عنده فبكى أبو بكر و قال : يا رسول الله فدينك بآبائنا و أمهاتنا قال : فعجبنا و قال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء و بين ما عند الله و هو يقول : فدينك بآبائنا و أمهاتنا قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير و كان أبو بكر هو أعلمنا به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن من آمن الناس علي في صحبتته و ماله أبو بكر و لو اتخذت من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا و لكن إخوة الإسلام لا تبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر هـ] الموت مكتوب على كل حي الأنبياء و الرسل و غيرهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : { إنك ميت و إنهم ميتون } و قال : { ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشر و الخير فتنة و إلينا ترجعون } و قال : { و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم } الآيتين .

خلق الله تعالى آدم من تراب الأرض و نفخ فيه من روحه فكانت روحه في جسده و أرواح ذريته في أجسادهم في هذه الدار عارية و قضى عليه و على ذريته أنه لا بد من أن يسترد أرواحهم من هذه الأجساد و يعيد أجسادهم إلى ما خلقت منه و هو التراب و وعد أن يعيد الأجساد من الأرض مرة ثانية ثم يرد إليها الأرواح مرة ثانية تملئها دائما لا رجعة فيه في دار البقاء قال الله تعالى : { قال فيها تحيون و فيها تموتون و منها تخرجون } و قال : { منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى } و قال : { أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها و يخرجكم إخراجا } و أرانا دليلا في هذه الدار على إعادة الأجساد من التراب بإنبات الزرع من الأرض و إحياء الأرض بعد موتها بالمطر و دليلا على إعادة الأرواح إلى أجسادها بعد المفارقة بقبض أرواح العباد في منامهم و ردها إليهم في يقظتهم كما قال تعالى : { الله يتوفى الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون } و في مسند البزار [عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم لما ناموا عن الصلاة : إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها إذا شاء و يرسلها إذا شاء] .

(استعدي للموت يا نفس واسعي ... للنجاة فالحازم المستعد) .

(قد تيقنت أنه ليس للحي ... خلود و لا من الموت بد) .

(إنما أنت مستعيرة ما سـ ... وف تردين و العواري ترد) .

*** .

(فما أهل الحياة لنا بأهل ... و لا دار الحياة لنا بدار) .

(و ما أموالنا و الأهل فيها ... و لا أولادنا إلا عواري) .

(و أنفسنا إلى أجل قريب ... سيأخذها المعير من المعار) .

مفارقة الجسد للروح لا تقع إلا بعد ألم عظيم تذوقه الروح و الجسد جميعا فإن الروح قد تعلقت بهذا الجسد و ألفته و اشتدت إلفتها له و امتزاجها به و دخولها فيه حتى صار كالشيء الواحد فلا يتفارقان إلا بجهد شديد و ألم عظيم و لم يذق ابن آدم حياته ألما مثله و إلى ذلك الإشارة بقول ا [عز و جل : { كل نفس ذائقة الموت } قال الربيع بن خثيم أكثروا ذكر هذا الموت فإنكم لم تذوقوا قبله مثله و يتزايد الألم بمعرفة المحتضر فإن جسده إذا فارقه الروح صار جيفة مستقذرة يأكله الهوام و يبلية التراب حتى يعود ترابا و إن الروح المارقة له لا تدري أين مستقرها هل هو في الجنة أو في النار فإن كان عاصيا مصرا على المعصية إلى الموت فربما غلب على ظنه أن روحه تصير إلى النار فتضاعف بذلك حسرته و ألمه و ربما كشفت له مع ذلك عن مقعده من النار فرآه أو يبشر بذلك فيجتمع له مع كرب الموت و ألمه العظيم معرفته بسوء مصيره و هذا المراد بقول ا [عز و جل : { و التفت الساق بالساق } على ما فسر به كثير من السلف فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت فلا يسأل عن سوء حاله و قد سمى ا [تعالى ذلك سكرة لأن ألم الموت مع ما ينضم إليه يسكر صاحبه فيغيب عقله غالبا قال ا [تعالى : { و جاءت سكرة الموت بالحق } : .

(ألا الموت كأس أي كأس ... و أنت لكائسه لا بد حاسي) .

(إلى كم و الممات إلى قريب ... تذكر بالممات و أنت ناسي) .

و قد أمر النبي صلى ا [عليه و سلم بكثرة ذكر الموت فقال : [أكثروا ذكر هادم اللذات الموت] و في حديث مرسل أنه صلى ا [عليه و سلم مر بمجلس قد استعلاه الضحك فقال [شوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات الموت] و في الإكثار من ذكر الموت فوائد منها : أنه يحث على الإستعداد له قبل نزوله و يقصر الأمل و يرضى بالقليل من الرزق و يزهد في الدنيا و يرغب في الآخرة و يهون مصائب الدنيا و يمنع من الأشر و البطر و التوسع في لذات الدنيا و [في حديث أبي ذر المرفوع الذي خرجه ابن حبان في صحيحه و غيره : أن صحف موسى كانت عبرا كلها [عجت لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجت لمن أيقن بالنار كيف يضحك عجت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب عجت لمن رأى الدنيا و سرعة تقبلها كيف يطمئن إليها و قد رزي أن الكنز الذي

كان للغلامين كان لوحا من ذهب مكتوب فيه هذا أيضا قال الحسن : إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فالتمسوا عيشا لا موت فيه و قال : فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحا و قال غيره : ذهب الموت بلذاذة كل عيش و سرور كل نعيم ثم بكى و قال : واهها لدار لا موت فيها .

(اذكر الموت هادم اللذات ... و تهيا لمصرع سوف يأتي غيره) .
(يا غافل القلب عن ذكر المنيات ... عما قليل ستلقى بين أموات) .
(فاذكر محلك من قبل الحلول به ... و تب إلى الله من لهو و لذات) .
(إن الحمام له وقت إلى أجل ... فاذكر مصائب أيام و ساعات) .
(لا تطمئن إلى الدنيا و زينتها ... قد آن للموت يا ذا اللب أن يأتي) .
قال بعض السلف : شيئان قطعاً عني لذاعة الدنيا : ذكر الموت و الوقوف بين يدي الله عز و جل .

(كيف يلذ العيش من كان موقنا ... بأن المنايا بغتة ستعاجله) .
(و كيف يلذ العيش من كان موقنا ... بأن إله الخلق لا بد سائله) .
قال أبو الدرداء : كفى بالموت واعظا و كفى بالدهر مفرقا اليوم في الدور و غدا في القبور .

(اذكر الموت و داوم ذكره ... إن في الموت لذي اللب عبر) .
(و كفى بالموت فاعلم واعظا ... لمن الموت عليه قد قدر) .
غفلة الإنسان عن الموت مع أنه لا بد له منه من العجب و الموجب له طول الأمل .
(كلنا في غفلة و المـ ... وت يغدو و يروح) .
(لبنى الدنيا من المـ ... وت غبوق و صبح) .
(سيصير المرء يوما ... جسدا ما فيه روح) .
(بين عيني كل حي ... علم الموت يلوح) .
(نج على نفسك يا مسك ... ين إن كنت تنوح) .
(لتموتن و لو عمـ ... رت ما عمر نوح) .

لما كان الموت مكروها بالطبع لما فيه من الشدة و المشقة العظيمة لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخبر و لذلك وقع التردد فيه في حق المؤمن كما [في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم : يقول الله عز و جل : و ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت و أكره مساءته و لا بد له منه] كما رواه البخاري قال ابن أبي المليك : [لما قبض إبراهيم عليه السلام قال الله عز و جل له : كيف وجدت الموت ؟ قال : يا رب كأن نفسي تنزع بالبلى فقال : هذا و قد هونا عليك الموت] و قال أبو إسحاق

: قيل لموسى عليه السلام : كيف وجدت طعم الموت قال : وجدته كسفود أدخل في صوف فاجتذب قال : هذا و قد هونا عليك الموت و يروى أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دما و كان يقول للحواريين : ادعوا اﷻ أن يخفف عني الموت فلقد خفت الموت خوفا أوقفني مخافة الموت على الموت كيف يطمع في البقاء و ما من الأنبياء إلا من مات أم كيف يؤمن هجوم المنايا و لم يسلم الأصفياء و الأحياء هيهات هيهات .

(قد مات كل نبي ... و مات كل بنيه) .

(و مات كل شريف ... و عاقل و سيفه) .

(لا يوحشك طريق ... كل الخلاق فيه) .

أول ما أعلم النبي صلى اﷻ عليه و سلم من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة : { إذا جاء نصر اﷻ و الفتح } و قيل لابن عباسBهما : هل كان يعلم رسول اﷻ صلى اﷻ عليه و سلم متى يموت ؟ قال : نعم قيل : و من أين ؟ قال : إن اﷻ تعالى جعل علامة موته هذه السورة : { إذا جاء نصر اﷻ و الفتح } يعني فتح مكة { و رأيت الناس يدخلون في دين اﷻ أفواجا } ذلك علامة موته و قد كان نعى نفسه إلى فاطمة عليها السلام فإن المراد من هذه السورة : أنك يا محمد إذا فتح اﷻ عليك البلاد و دخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجا فقد اقترب أجلك فتهياً للقائنا بالتحميد و الإستغفار فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة و التبليغ و ما عندنا خير لك من الدنيا فاستعد للنقلة إلينا قال ابن عباس : لما نزلت هذه السورة نعت لرسول اﷻ صلى اﷻ عليه و سلم نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهدا في أمر الآخرة و روي في حديث : [إنه تعبد حتى صار كالشن البالي] [و كان يعرض القرآن كل عام على جبريل مرة فعرضه ذلك العام مرتين] [و كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام فاعتكف فيه ذلك العام عشرين] [و أكثر من الذكر و الإستغفار] قالت أم سلمة : [كان رسول اﷻ صلى اﷻ عليه و سلم في آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يذهب و لا يجيء إلا قال سبحان اﷻ و بحمده فذكرت ذلك له فقال : إني أمرت بذلك] و تلا هذه السورة و قالت عائشةBها : [كان رسول اﷻ صلى اﷻ عليه و سلم يكثّر أن يقول قبل موته : سبحان اﷻ و بحمده استغفر اﷻ و أتوب إليه فقلت له : إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم ؟ قال : إن ربي أخبرني أنني سأرى علما في أمتي و إني إذا رأيته أن أسبح بحمده و أستغفره و قد رأيته ثم تلا هذه السورة] إذا كان سيد المحسنين يؤمر بأن يختم أعماله بالحسنى فكيف يكون حال المذنب المسيء المتلوث بالذنوب المحتاج إلى التطهير من لم ينذره باقتراب أجله و حي أنذره الشيب و سلب أقرانه بالموت .

(كفى مؤذنا باقتراب الأجل ... شباب تولى و شيب نزل) .

(و موت الأقران و هل بعده ... بقاء يؤمله من عقل) .

(إذا ارتحلت قرناء الفتى ... على حكم ريب المنون ارتحل) .

قال وهب بن الورد : إم ملكا ينادي في السماء كل يوم و ليلة أبناء الخمسين : زرع دنا حصاده أبناء الستين : هلموا إلى الحساب أبناء السبعين : ماذا قدمتم و ماذا أخرتم أبناء الثمانين : لا عذر لكم و عن وهب قال : ينادي مناد : أبناء الستين : عدوا أنفسكم في الموتى و في صحيح البخاري [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أعذر صلى الله عليه و سلم إلى من بلغه ستين من عمره] و في حديث آخر : [إذا كان يوم القيامة نودي أين أبناء الستين و هو العمر الذي قال الله فيه : { أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر }] و في الترمذي عنه صلى الله عليه و سلم قال : [أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين و أقلهم من يجوز ذلك] و في حديث آخر : [معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين] و في حديث آخر : [إن لكل شيء حصادا و حصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين] و في هذا المعترك قبض النبي صلى الله عليه و سلم قال سفيان الثوري : من بلغ سن رسول الله صلى الله عليه و سلم فليتخذ لنفسه كفنا .

(و إن أمر قد سار ستين حجة ... إلى منهل من و لقريب) .

قال الفضيل لرجل : كم أتى عليك ؟ قال : ستون سنة قال له : أنت من ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ فقال الرجل : إنا و إنا إليه راجعون فقال فضيل : من علم أنه عبد و أنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف و أنه مسؤول فليعد للمسألة جوابا فقال له الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة قال : ماهي ؟ قال : تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى و ما بقي .

(خذ في جد فقد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر) .

(أقبل فعسى يقبل منك العذر ... كم تبني كم تنقض كم ذا الغدر) .

و ما زال صلى الله عليه و سلم يعرض باقتراب أجله في آخر عمره فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس : [خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا] و طفق يودع الناس فقالوا : هذه حجة الوداع فلما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى خما في طريقه بين مكة و المدينة فخطبهم و قال : [أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ثم حض على التمسك بكتاب الله و وصى بأهل بيته] ثم إنه لما بدأ به مرض الموت خير بين لقاء الله و بين زهرة الدنيا و البقاء فيها ما شاء الله فاختار لقاء الله و خطب الناس و أشار إليهم بذلك إشارة من غير تصريح .

و كان ابتداء مرضه في أواخر شهر صفر و كان مدة مرضه ثلاثة عشر يوما في المشهور و قيل : أربعة عشر يوما و قيل : اثنا عشر يوما و قيل : عشرة أيام و هو غريب و كانت خطبته التي خطب بها في حديث أبي سعيد هذا الذي نتكلم عليه ههنا في ابتداء مرضه في المسند و صحيح

ابن حبان [عن أبي سعيد الخدري قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه وهو معصوب الرأس فقام على المنبر فقال : إن عبدا عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة قال : فلم يظن لها أحد من القوم إلا أبو بكر فقال : بأبي وأمي بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا قال : ثم هبط عن المنبر فما رأي عليه حتى الساعة] .
و في المسند [عن أبي مويهبة : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ليلة إلى البقيع فاستغفر لأهل البقيع و قال : ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا يتبع آخرها أولها الآخرة شر من الأولى ثم قال : يا أبا موهبة إنني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي و الجنة ثم انصرف فابتدأه وجعه الذي قبضه الله فيه] لما قويت معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بربه ازداد حبه له وشوقه إلى لقائه فلما خیر بين البقاء في الدنيا وبين لقاء ربه اختار لقاءه على خزائن الدنيا والبقاء فيها سئل الشبلي هل يقنع المحب بشيء من حبيبه دون مشاهدته فأنشد : .

(و الله لو أنك توجنتني ... بتاج كسرى ملك المشرق) .

(و لو بأموال الورى جدت لي ... أموال من باد و من قد بقي) .

(و قلت لي : لا نلتقي ساعة ... اخترت يا مولاي أن نلتقي) .

لما عرض الرسول صلى الله عليه وسلم على المنبر باختياره اللقاء على البقاء و لم يصرح خفي المعنى على كثير ممن سمع و لم يفهم المقصود غير صاحبه الخميم به ثاني اثنين إذ هما في الغار و كان أعلم الأمة بمقاصد الرسول صلى الله عليه وسلم فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى و قال : بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا فسكن الرسول صلى الله عليه وسلم جزعه و أخذ في مدحه و الثناء عليه على المنبر ليعلم الناس كلهم فضله و لا يقع عليه اختلاف في خلافته فقال : [إن من أمن الناس علي في صحبته و ماله أبو بكر] و في رواية أخرى أنه قال : [ما لأحد عندنا يد إلا و قد كافأناه ما خلا أبو بكر فإن له عندنا يدا يكافئه] يوم القيامة بها و ما نفعتني مال أحد قط ما نفعتني مال أبي بكر [خرجه الترمذي ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا و لكن إخوة الإسلام] لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خليل الله لم يصلح له أن يخال مخلوقا فإن الخليل من جرت محبة خليله منه مجرى الروح و لا يصلح هذا لبشر كما قيل . . :

(قد تخللت مسلك الروح مني ... و بدا سمي الخليل خليلا) .

و لهذا المعنى قيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده و لم يكن المقصود غارقة دم الولد بل تفرغ محل الخلقة لمن لا يصلح أن يزاحمه فيها أحد .

(أروح و قد ختمت على فؤادي ... بحبك أن يحل به سواكا) .

(فلو أني استطعت غضضت طرفي ... فلم أنظر به حتى أراك) .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : [لا يبقين خوخة في المسجد إلا سدت إلا خوخة أبي بكر] .
و في رواية : [سدوا هذه الأبواب الشارعة في المسجد إلا باب أبي بكر] و في هذه الإشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام بعده فإن الإمام يحتاج إلى سكنى المسجد و الإستطراق فيه بخلاف غيره و ذلك من مصالح المسلمين المصلين في المسجد ثم أكد هذا المعنى بأمره صريحا أن يصلي بالناس أبو بكر فروجع في ذلك فغضب و قال : [مروا أبا بكر فليصل بالناس] فولاه إمامة الصلاة دون غيره و أبقي استطراقه من داره إلى مكان الصلاة و سد استطراق غيره و في ذلك إشارة واضحة إلى استخلافه على الأمة دون غيره و لهذا قالت الصحابة عندبيعة أبي بكر : رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فكيف لا نرضاه لديننا و لما قال أبو بكر : قد أقلتكم بيعتي قال علي : لا نقيلك و نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فممن ذا يؤخرك لما انطوى بساط النبوة من الأرض ب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبق على وجه الأرض أكمل من درجة الصديقية و أبو بكر رأس الصديقين فهذا استحق خلافة الرسول و القيام مقامه و كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عزم على أن يكتب لأبي بكر كتابا لئلا يختلف عليه ثم أعرض عن ذلك لعلمه أنه لا يقع غيره و قال : [يأبى الله و المؤمنون إلا أبا بكر] و ربما كان ترك ذلك لئلا يتوهم متوهم أن نصه على خلافته كانت مكافأة ليدته التي كانت له و الولايات كلها لا يقصد بها مصلحة المولى بل مصلحة المسلمين عامة .
و كان أول ما ابتدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من مرضه وجع رأسه و لهذا خطب و قد عصب رأسه بعصاة دسماء و كان صداع الرأس و الشقيقة يعتريه كثيرا في حياته و يتألم منه أياما و صداع الرأس من علامات أهل الإيمان و أهل الجنة و قد روي [عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه وصف أهل النار فقال : هم الذين لا يألمون رؤوسهم] و دخل عليه أعرابي فقال له : [يا أعرابي هل أخذك هذا الصداع ؟ فقال : و ما الصداع ؟ قال : عروق تضرب على الإنسان في رأسه فقال : ما وجدت هذا فلما ولى الأعرابي قال النبي صلى الله عليه وسلم : من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا] خرجه الإمام أحمد و النسائي و قال كعب : أجد في التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصاة من حديد لا يصدع أبدا و في المسند [عن عائشة Bها قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي بدأ فيه فقلت : و أراساه فقال : وددت أن ذلك كان وأنا حي فهيأتك و دفنتك فقلت : غيراء كأنني بك في ذلك اليوم عروسا ببعض نسائك فقال : أنا و أراساه ادعولي أباك و أخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا فإني أخاف أن يقول قائل و يتمنى متمنى و يأبى الله و المؤمنون إلا أبا بكر] و خرجه البخاري بمعناه و لفظه : [أن عائشة Bها قالت : و أراساه فقال رسول

ﷺ صلى الله عليه وسلم : ذاك لو كان و أنا حي فاستغفر و أدعو لك قالت عائشة : واثكلها و
ﷺ إني لأظنك تحب موتي و لو كان ذلك لطللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك فقال النبي صلى
ﷺ عليه وسلم : بل أنا و أراساه] و ذكر بقية الحديث و في المسند أيضا [عنها قالت كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر ببابي كثيرا ما يلقي الكلمة ينفع الله بها فمر ذات يوم
فلم يقل شيئا مرتين أو ثلاثا قلت : يا جارية ضعي لي وسادة على الباب وعصبت رأسي فمر بي
و قال : يا عائشة ما شأنك ؟ فقلت : أشتكي رأسي فقال : أنا و أراساه فذهب فلم يلبث إلا
يسيرا حتى جيء به محمولا في كساء فدخل علي فبعث إلى النساء و قال : إني اشتكيت أني لا
أستطيع أن أدور بينكن فأذن لي فلاكن عند عائشة] و فيه أيضا عنها قالت : [رجع إلي
النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من جنازة بالقيع و أنا أجد صداعا في رأسي و أنا أقول
و أراساه ثم قال : ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك و كفنتك ثم صليت عليك و دفنتك فقلت : لكأنني
بك و الله لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نساءك فتبسم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه] .

[فقد تبين أن أول مرضه كان صداع الرأس و الظاهر أنه كان مع حمى فإن الحمى اشتدت به
في مرضه فكان يجلس في مخضب و يصب عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن يتبرد بذلك و
كان عليه قطيفة فكانت حرارة الحمى تصيب من وضع يده عليه من فوقها فقل له في ذلك ؟
فقال : إنا كذلك يشدد علينا البلاء و يضاعف لنا الأجر و قال : إني أوعك كما يوعك رجلان
منكم و من شدة وجعه كان يغمى عليه في مرضه ثم يفيق و حصل له ذلك غير مرة فأغمى عليه
مرة و طنوا أن وجعه ذات الجنب فلدوه فلما أفاق أنكر ذلك و أمر أن يلد من ولده و قال :
إن الله لم يكن ليسلطها علي يعني ذات الجنب و لكنه من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر يعني :
أنه نقص عليه سم الشاة التي أهدتها له اليهودية فأكل منها يومئذ فكان ذلك يثور عليه
أحيانا فقال في مرض موته : ما زالت أكلة خيبر تعاودني فيها أوان انقطاع أبهري و كان
ابن مسعود و غيره يقولون : إنه مات شهيدا من السم و قالت عائشة : ما رأيت أحدا كان أشد
عليه الوجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان عنده في مرضه سبعة دنانير فكان يأمرهم
بالصدقة بها ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه فدعا بها فوضعها في كفه يأمرهم بالصدقة بها
ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه فدعا بها فوضعها في كفه و قال : ما ظن محمد بربه لو لقي
الله و عنده هذه ثم تصدق بها كلها فكيف يكون حال من لقي الله و عنده دماء المسلمين و
أموالهم المحرمة و ما ظنه بربه] .

و لم يكن عندهم في مرضه دهن للمصباح يوقد فيه فلما اشتد وجعه ليلة الإثنين أرسلت عائشة
بالمصباح إلى امرأة من النساء فقالت قطري لنا في مصباحنا من عكة السمن فإن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أمسى في جديد الموت و كان عند عائشة إزار غليظ مما صنع باليمن و كساء من

الملبدة فكانت تقسم باء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فيهما و دخلت عليه فاطمة عليها السلام في مرضه فسارها رسول الله بشيء فبكث ثم سارها فضحكت فسئلت عن ذلك ؟ فقالت : لا أفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفي سئلت ؟ فقالت : أخبرني أنه يموت في مرضه فبكيت ثم أخبرني أنني أول أهله لحوقا به و أنني سيدة نساء العالمين فضحكت فلما احتضر صلى الله عليه وسلم اشتد به الأمر [فقالت عائشة : ما أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : و كان عنده قدح من ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء و يقول : اللهم أعني على سكرات الموت قالت : و جعل يقول : لا إله إلا الله [إن للموت لسكرات] و في حديث مرسل أنه قال : [اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب و القصب و الأنامل اللهم فأعني على الموت و هونه علي] و لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب قالت فاطمة عليها السلام : و اكرب أبتاه فقال لها : [لا كرب على أبيك بعد اليوم] و في حديث خرجه ابن ماجه : أنه صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة : [إنه قد حضر من أبيك ما ليس الله بتارك منه أحد الموافاة يوم القيامة] . ولم يقبض صلى الله عليه وسلم حتى خير مرة أخرى بين الدنيا و الآخرة قالت عائشة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : [إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير] فلما نزل به و رأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال : [اللهم الرفيق الأعلى] فقلت : الآن لا يختارنا و علمت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها و في رواية أنه قال : [اللهم اغفر لي و ارحمني و ألحقني بالرفيق الأعلى] و في رواية [أنه أصابه بحة شديدة فسمعتة يقول : { مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا } قالت : فظننت أنه خير] .

و هذه الروايات مخرجة في صحيح البخاري و غيره و قد روي ما يدل على أنه قبض ثم رأى مقعده من الجنة ثم ردت إليه نفسه ثم خير : ففي المسند [عن عائشة Bها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من نبي إلا يقبض نفسه ثم يرى الثواب ثم ترد إليه فيخير بين أن ترد إليه أو يلحق] فكنت قد حفظت ذلك منه فإني لمسندته إلى صدري فنظرت إليه حتى مالت عنقه فقلت : قد قضى قالت : فعرفت الذي قال : فنظرت إليه حتى ارتفع و نظر فقالت : إذا و الله لا يختارنا فقال : مع الرفيق الأعلى في الجنة { مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين } إلى آخر الآية و في صحيح ابن حبان عنها قالت : [أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم و رأسه في حجري فجعلت أمسحه و أدعو له بالشفاء فلما أفاق قال : لا بل أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل و إسرافيل] و فيه و في المسند عنها : [أنها كانت ترقيه في مرضه الذي مات فيه فقال : ارفعي يدك فإنها كانت

تنفعني في المدة [قال الحسن لما كرهت الأنبياء الموت هوناً عليهم بلقاء الله و بكل ما أحبوا من تحفة أو كرامة حتى أن نفس أحدهم لتتزع من بين جنبيه وهو يحب ذلك لما قد مثل له وفي المسند [عن عائشة Bها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنه ليهون علي الموت إنني رأيت بياض كف عائشة في الجنة] وخرجه ابن سعد وغيره مرسلًا انه قال صلى الله عليه وسلم : [لقد أريتها في الجنة ليهون بذلك علي موتي كأنني أرى كفيها] يعني عائشة كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب عائشة Bها حبًا شديدًا حتى لا يكاد يصبر عنها فمثلت له بين يديه في الجنة ليهون عليه موته فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة و قد سأله رجل : أي النساء أحب إليك ؟ فقال : [عائشة فقال له فمن الرجال ؟ قال : أبوها] و لهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت : و أ رأساها : وددت أن ذلك كان و أنا حي فأصلي عليك و أدفئك فعظم ذلك عليها و طنت أنه يحب فراقها و إنما كان يريد تعجيلها بين يديه ليقرب اجتماعهما و قد كانت عائشة مضغت له صلى الله عليه وسلم سواكا و طيبته بريقها ثم دفعته إليه فاستن به أحسن استنان ثم ذهب يتناوله فضعفت يده عنه فسقط من يده فكانت عائشة تقول : جمع الله بي ريقى و ريقه في آخر يوم من الدنيا و أول يوم من الآخرة و الحديث مخرج في الصحيحين